

دلائل الإعجاز

وتَهَمُّهُ ضَمِيرَ عَمْرٍو يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ لَزِيدٍ وَأَنْ يُقَدَّرَ حَالاً لَهُ . وليس كذلك : جاءني زيدٌ وهو يسرعُ لأن السرعةَ هناك لزيدٍ لا محالةَ فكيفَ ساغَ أَنْ تَقْيَسَ إِحْدَى الْمَسْأَلَتَيْنِ عَلَى الْأُخْرَى قِيلَ : ليس المانعُ أن يكون يسرعُ في قولك : جاءني زيدٌ وعمرو يسرعُ أمامه حالاً من زيدٍ أُنزَّهَ فَعَلُ لِعَمْرٍو . فإنك لو أَخَّرْتَ عَمْرًا فَرَفَعْتَهُ بِيَسْرَعٍ وَأَوْلَيْتَ " يسرعُ " زيداً فَقُلْتَ : جاءني زيدٌ يسرعُ عمروُ أمامه . وجدته قد صَلَحَ حَالاً لَزِيدٍ مَعَ أَنَّهُ فَعِلُ لِعَمْرٍو وَإِنَّمَا الْمَانِعُ مَا عَرَّ فُتُّكَ مِنْ أَنْكَ تَدْعُ عَمْرًا بِرِمَاضِيَعَةٍ وَتَجِيءُ بِهِ مَبْتَدَأً ثُمَّ لَا تُعْطِيهِ خَبْرًا . ومما يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ ذَلِكَ أَنَّهُ يُؤَدِي إِلَى أَنْ يَكُونَ " يسرعُ " قَدْ اجْتَمَعَ فِي مَوْضِعِهِ النَّصْبُ وَالرَّفْعُ وَذَلِكَ أَنْ جَعَلَهُ حَالاً مِنْ زِيدٍ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ وَجَعَلَهُ خَبْرًا عَنْ عَمْرٍو الْمَرْفُوعِ بِالْإِبْتِدَاءِ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ . وَذَلِكَ بِسَبَبِ التَّوَادُفِ فِي هَذَا التَّوَادُفِ إِذَا أَخَّرْتَ عَمْرًا فَقُلْتَ : جاءني زيدٌ يسرعُ عمروُ أمامه . لأنك ترفعه بيسرعُ على أنه فاعلٌ له . وإذا ارتفعَ به لم يوجبُ في موضعه إعراباً فيبقى مُفْرَغًا لِأَنَّ يقدَّرَ فِيهِ النَّصْبُ عَلَى أَنَّهُ حَالٌ مِنْ زِيدٍ وَجَرَى مَجْرَى أَنْ تَقُولَ : جاءني زيدٌ مسرعاً عمروُ أمامه . فَإِنْ قُلْتَ : فقد ينبغي على هذا الأصلِ أَنْ لَا تَجِيءَ جَمَلَةٌ مِنْ مَبْتَدَأٍ وَخَبْرٍ حَالاً إِلَّا مَعَ الْوَاوِ وَقَدْ ذَكَرْتَ قَدِيدٌ أَنْ ذَلِكَ قَدْ جَاءَ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كَلَامِهِمْ فَالْجَوَابُ أَنَّ الْقِيَاسَ وَالْأَصْلَ أَنْ لَا تَجِيءَ جَمَلَةٌ مِنْ مَبْتَدَأٍ وَخَبْرٍ حَالاً إِلَّا مَعَ الْوَاوِ . وَأَمَّا الَّذِي جَاءَ مِنْ ذَلِكَ فَسَبِيلُهُ سَبِيلُ الشَّيْءِ يَخْرُجُ عَنْ أَصْلِهِ وَقِيَاسِهِ وَالظَّاهِرُ فِيهِ بِضَرْبٍ مِنَ التَّوَادُفِ وَأَوَّلُ وَنَوْعٍ مِنَ التَّشْبِيهِ . فَقَوْلُهُمْ : " كَلِمَتُهُ فُؤُهُ إِلَى فِي " إِنَّمَا حَسُنَ بِغَيْرِ وَاوٍ مِنْ أَجْلِ أَنَّ الْمَعْنَى كَلِمَتُهُ مُشَافِهَةٌ لَهُ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ : " رَجَعَ عَوْدُهُ عَلَى بَدْوَتِهِ " إِنَّمَا جَاءَ الرَّفْعُ فِيهِ وَالْإِبْتِدَاءُ مِنْ غَيْرِ وَاوٍ لِأَنَّ الْمَعْنَى : رَجَعَ ذَاهِبًا فِي طَرِيقِهِ الَّذِي جَاءَ فِيهِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : " وَجَدْتُهُ حَاضِرًا : الْجُودُ وَالْكَرَمُ " فَلِأَنَّ تَقْدِيمَ الْخَبْرِ الَّذِي هُوَ " حَاضِرًا " يَجْعَلُهُ كَأَنَّهُ قَالَ : وَجَدْتُهُ حَاضِرًا عِنْدَهُ الْجُودُ وَالْكَرَمُ . وَلَيْسَ الْحَمْلُ عَلَى الْمَعْنَى وَتَنْزِيلِ الشَّيْءِ مَنْزِلَةَ غَيْرِهِ بِعَزِيزٍ فِي كَلَامِهِمْ وَقَدْ قَالُوا : زِيدُ اضْرِبْ بِهِ . فَأَجَازُوا أَنْ يَكُونَ مِثَالُ الْأَمْرِ فِي مَوْضِعِ الْخَبْرِ لِأَنَّ الْمَعْنَى عَلَى النَّصْبِ نَحْوُ : اضْرِبْ زِيدًا . وَوَضَعُوا الْجَمَلَةَ مِنَ الْمَبْتَدَأِ وَالْخَبْرِ مَوْضِعَ الْفِعْلِ وَالْفَاعِلِ فِي نَحْوِ قَوْلِهِ : تَعَالَى : (أَدْعَوْهُمْ وَهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ) لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْمَعَادِلَةِ أَنْ تَكُونَ الثَّانِيَةُ كَالْأُولَى نَحْوُ (أَدْعُوهُمْ أَمْ صَمَتُّمْ)

